سورة طه

هى مكية إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان ، وعدد آيها خمس وثلاثون بعد المائة نزلت بعد سورة مريم .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها بطريق البسط والإطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز كقصص إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال ـ ذكر هنا قصة موسى التى أجملت فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة آدم عليه السلام ، ولم يذكر فى مريم إلا اسمه فحسب .

(٢) إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفتها .

(٣) إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة ومناسب له فى المعنى ، إذ ذكر فى آخر تلك أنه إنما يسّر القرآن بلسانه العربى المبين ليكون تبشيرا للمتقين وإنذارا للمعاندين ، وفى أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) .

شرح المفردات

لتشقى : أى لتتعب وتنصب ، تذكرة : أى تذكيرا وعظة ، يخشى : أى يخاف الله ، العلى : واحدها العليا مؤنثة الأعلى كالكبرى مؤنثة الأكبر ، والعرش : فى اللغة سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم ، واستوى : استولى عليه قال شاعرهم :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والثرى : التراب الندىّ ؛ والمراد هنا مطلق التراب ، وأخفى : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوّه به بحال ، والأسماء : أى الصفات كما جاء فى قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ » أى صفوهم ، والحسنى : مؤنثة الأحسن .

المعنى الجملى

روى مقاتل أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك ، فقال عليه السلام : بل بعثت رحمة للعالمين ، قالوا بل أنت تشقى ، فأنزل الله الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السبيل إلى نيل كل فوز ، وسبب إدراك كل سعادة ، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه .

الإيضاح

(طه) تقدم أن قلنا إن أصح الآراء فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور أنها حروف تنبيه كألا ويا ونحوهما مما يذكر فى أوائل الجمل لقصد تنبيه المخاطب إلى مايلقى بعدها لأهميته وإرادة إصغائه إليه نحو ما جاء فى قوله تعالى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وينطق بأسمائها حين القراءة فيقال (طا.ها)

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتغلو فى مكابدة الشدائد حين تحاور أولئك القوم الطغاة ، وتقاول أولئك العتاة ، وتفرط فى الأسى على كفرهم ، وتتحسر على عدم إيمانهم ، بل أنزلناه عليك لتبلغ وتذكر وقد فعلت ، فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد هذا .

ونحو الآية قوله : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

وقصارى ذلك — إنا أنزلناه عليك لتذكر به ، فمن آمن وأصلح فلنفسه ، ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إن عليك إلا البلاغ ، ولست عليهم بمسيطر .

وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من التعب والنصب حين كان يدعو أولئك القومَ ذوى اللدد والخصومة ، ولا عجب فالكلام صنعتهم و به يتفاخرون ، وعليه يعتمدون ، إذ يقرعون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وهو لديهم أمضى من السنان .

(إلا تذكرة لمن يخشى) أى ما أنزلناه عليك لشقائك ، ولكن أنزلناه تذكيرا لمن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ، وحسن استعداده ، وقد كان عليه السلام يعظهم به بتلاوته وتفسير ما جاء به من مقاصد وأغراض ومصالح لهم فى دنياهم وآخرتهم .

وخص الخاشعين بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم ، من قِبَل أن غيرهم كأنه لا وجود له لعدم انتفاعه به .

وخلاصة ذلك — حسبك ما حملته من متاعب التبليغ والتبشير والإنذار ، ولا تنهك بدنك بحملهم على قبول الدعوة والاستجابة لأمرك ، فإن ذلك من شأننا لا من شأنك ، و بيدنا لا بيدك .

(تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) أى نزل عليك تنزيلا من ربك

الذى خلق الأرض والسموات العلى ، والمراد بهما ما فى جهة السفل والعلو ، ويستتبع ذلك كل مايتعلق بهما .

(الرحمن على العرش استوى) أى هو الرحمن الذى على عرشه ارتفع وعلا ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة الأعراف بيسط وإطناب .

(له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) أى له مافى السموات والأرض وما بينهما ملكا وتدبيرا وتصرفا ، وله ماوراه التراب وأخفاه من المعادن والفلزّات وغيرها .

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) أى وإن تجهر بدعاء الله وذكره ، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ، لأنه يعلم ما أسررته إلى غيرك ولم ترفع به صوتك ، وأخفى منه مما تخطره ببالك دون أن تتفوّه به .

والدعاء والذكر باللسان إنما شرعا ليتصور الداعى والذاكر المعنى فى نفسه ، لاليسمع صوته ، ولا فضل للنطق والجهر به إلا فى منع الشواغل الشاغلة عن حضور المعانى فى القلوب كما قال تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ونحو الآية قوله : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » .

(الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى) أى إن ماذكر من صفات الكمال التى تقدمت ليس بأهل لها إلا ذلك المعبود الحق الذى لارب غيره ولا إله سواه ، وله الصفات الحسنى الدالة على التقديس والتمجيد ، والأفعال التى هى غاية فى الحكمة والسداد .

قصص موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ
طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) .

شرح المفردات

الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو فى منامه، والمكث : الإقامة ، آنست : أى أبصرت ، آتيكم : أجيئكم ، بقبس : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه ، هدى : أى هاديا يدلنى على الطريق ، طوى: (بالضم) منونا : اسم لذلك الوادى ، اخترتك : أى اصطفيتك ، لذكرى : أى لتكون ذاكرا لى ، أكاد أخفيها : أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية ، هواه : أى ماتهواه نفسه ، فتردى : أى فتهلك .

المعنى الجملى

بعد أن عظم سبحانه كتابه والرسول الذى أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ بالإنذار والتبشير ــ أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء وما فعلته أممهم معهم وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأسٍّ بهم فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت والأذى من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » .

obeikandl.com

وبدأ بقصص موسى لأن محنته كانت أشد فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال ، وقابل ذلك بعزم لا يفتر وبقوة تفلّ الحديد .

الإيضاح

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا) أى وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحى إلى موسى وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر وتقرير الجواب فى نفس المخاطب أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، فخرج وسار قاصدا مصر بعد أن طالت غيبته عنها فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجه ، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، وجعل يقدح زَنْدَه كان معه ليورى نارا ، فلم تور المِقْدحة شيئا ، وبينما هو يزاول ذلك ويعالجه إذ رأى نارا من بُعْد عن يسار الطريق .

(فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) أى فقال المرأة وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إنى أبصرت نارا وسأذهب إليها لعلى أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أونحوه ، أو أجد هاديا يدلنى على الطريق ، وجاء فى سورة القصص : « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » .

وقصارى ذلك — إنه قال لأهله أقيموا مكانكم — وإنى قد رأيت نارا، فإما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه نارا تصطلون بها ، وإما أن أجد دليلا يرشدنى إلى الطريق المسلوك وكان قد ضل عنه .

(فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك) أى فلما خرج موسى نحوها وجد نارا بيضاء تتقد كأضوإ مايكون فى شجرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ـ وهناك نودى ياموسى ، قال من المتكلم ؟ قال إنى أنا ربك .

ثم أمره أن يخلع نعليه احتراما للبقعة المقدسة فقال :

(فاخلع نعليك) إذ أن الحفوة أقرب إلى التواضع وحسن الأدب ، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين ؛ ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :

(إنك بالواد المقدس طوى) أى لأنك بالوادى المطهر المسمى بطوى فاخلعهما ليحصل للقدمين بركته .

(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) أى وأنا اصطفيتك من قومك للنبوة والرسالة، فعليك أن تسمع لما أوحيه إليك ، ونحو الآية قوله : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى » .

وقصارى ذلك — لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل خاطرك مصروفا إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور القلب والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم مايوحى إليه بقوله :

(إننى أنا الله لا إله إلا أنا) أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لاإله إلا الله وحده لاشريك له .

(فاعبدنى) أى وإذ كنت أنا الإله حقا ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

(وأقم الصلاة لذكرى) أى أدّ الصلاة على الوجه الذى أمرتك به متمّمة الأركان مستوفاة الشرائط ، لتذكرنى فيها وتدعونى دعاء خالصا لايشوبه إشراك ولا توجه إلى سواى .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لما لها من الفضل على سواها ، إذ فيها ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذلك، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر.

أخرج الترمذى وابن ماجه فى جماعة آخرين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : أقم الصلاة لذكرى » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

(إن الساعة آتية أكاد أخفيها) أى إن الساعة آتية لامحالة ، وإنى أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق ، وقد جاء هذا على سنن العرب يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التهويل والتخويف ، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة يكونوا منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ويصلح عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل ، فيترك المعاصى ويتوب منها فى كل حين خوف معاجلة الموت .

(لتجزى كل نفس بما تسعى) أى إن الساعة آتية لامحالة ليجزى كل عامل بعمله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم خاطب سبحانه موسى محذرا له فقال :

(فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) أى فلا يردنَّك ياموسى عن التأهب للساعة من لا يقرّ بقيامها ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، بل يركب رأسه ويخالف أمر ربه ونهيه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت

فى هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم (إياكِ أعنى واسمعى ياجاره) فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين كما تقدم غير مرة .

وخلاصة ذلك — لاتتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته فى دنياه وعصى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال: « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) .

شرح المفردات

أتوكأ عليها : أعتمد عليها فى المشى والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ، وأهش بها : أى أخبط بها ورق الشجر ، مآرب : أى منافع واحدها مأربة (مثلثة الزاء) والحية : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع ، والثعبان : العظيم من الحيات ، والجانّ : الصغير منها ، سيرتها الأولى : أى حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره نبيا و إيحاءه إليه أن لاإله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره ، وتخصيصه

بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لامحالة ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما دسى به نفسه جزاء وفاقا .

قفى على ذلك بذكر البرهانات التى آتاها موسى دلالة على نبوته وتصديقا له على رسالته ، فبدأ بذكر العصا التى انقلبت حية تسعى حين ألقاها من يده ، وكان قد سأله عنها استجلاء لقلبه ، وتهدئة لروعه فى هذا المقام الرهيب ، و إعلاما بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن وجليل المنافع والمزايا التى لم تكن تدور بخلده عليه السلام .

الإيضاح

(وما تلك بيمينك ياموسى) سأله سبحانه عما فى يده وهو العليم به ، ليبين له أنه سيجعل من تلك الخشبة التى ليس لها خطر كبير ولا منفعة عظيمة ـ جليل المزايا والفوائد التى لم تكن تخطر له على بال كانقلابها حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبهه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ، وبالغ عظمته ، إذ أظهر من أحقر الأشياء هـذه المزايا الجليلة ـ على سنن الناس فى تخاطبهم إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشىء الحقير شيئا شريفا ، أن يأخذه ويعرضه على النظارة ويقول لهم : ماهذا ؟ فيقولون هو كذا ، فيفيض فى شرح ماله من فائق المزايا وجليل المنافع التى لم تكن تدور بخلدهم ، ولم تخطر ببالهم ـ فأجابه موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا على حسب ما وصلت إليه معرفة البشر .

(قال هى عصاى) وبهذا تم الجواب ، ولـكن موسى ذكر مالها من فوائد ، إذ أحب مكالمة ربه فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

(١) (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها إذا مشيت أو تعبت أو وقفت على رأس القطيع من الغنم .

(٢) (وأهش بها على غنمى) أى أخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمى فتأكله .

(٣) (ولى فيها مآرب أخرى) أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك كحمل الزاد والسقى وطرد السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألقيتها على عاتقى ، فعلقت بها قوسى وكنانتى ومخلاتى وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .

وقد أجمل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره الله بإلقائها لتتبين لها فوائد لم يعرفها موسى .

(قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى) أى قال له ربه : ألقها يا موسى لترى من شأنها ما ترى ، فألقاها فإذا هى ثعبان عظيم ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها .

ثم أمره ربه بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .

(قال خذها ولا تخف) أى قال له ربه : خذها بيمينك ولا تخف منها .

وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى لا يعرف له نظير ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .

ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

(سنعيدها سيرتها الأولى) أى سنرجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل وهى العصوية ، فأقدم على ذلك برباطة جأش وثبات وعزم دون تردد ولا ذعر .

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩)

هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) .

شرح المفردات

الضم : الجمع ، وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجنب وهو المراد هنا ، والسوء : القبح فى كل شىء ، ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه ، وآية أخرى : أى معجزة ثانية غير العصا ، طغى : أى تجاوز الحد فى عتوه وتجبره ، اشرح لى صدرى : أى وسعه لتحمل أعباء الرسالة ، ويسر لى أمرى : أى سهل لى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة ، واحلل عقدة من لسانى : أى أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى لئلا يستخف بى الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى ، يفقهوا قولى : أى يفهموه ، وزيرا : أى معينا ، والأزر: القوة، يقال آزره أى قوّاه وأعانه ، وأشركه فى أمرى : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة ، إنك كنت بنا بصيرا : أى عالما بأحوالنا لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعجزة الأولى الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وعلى صدق رسالته وهى العصا وما صدر منها من الأفاعيل حين ألقاها من يده ، ثم عودتها سيرتها الأولى حين أخذها من الأرض ـ قفى على ذلك بذكر المعجزة الثانية التى آتاها إياه وهى معجزة اليد ، فإنه كان إذا وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت العضد ثم أخرجها أضاءت كشعاع الشمس تعشى البصر ، ثم بذكر أمره له بالذهاب إلى فرعون لتبليغ رسالة ربه ، ثم دعائه ربه أن يشرح له صدره ويسهل له أمره ، وأن يجعل له

أخاه هرون نبيا كى يشد أزره ويقوى على تبليغ الرسالة ، ويتعاونا على ذكر الله وعبادته .

الإيضاح

(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك اليمنى من طوق مِدْرعتك (قميصك) واجعلها تحت الإبط اليسرى تخرج بيضاء لامعة من غير برص ولا عيب ، روى أن موسى كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تتلألأ كأنها فلقة قمر ، قال الحسن البصرى : أخرجها والله كأنها مصباح ، فعلم أنه قد لقى ربه .

(آية أخرى) أى وهـذه علامة أخرى غير الآية التى أريناكها من قبلُ من تحويل العصا حية تسعى ـ تدل على صدقك فيما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليهم .

(لنريك من آياتنا الكبرى) أى افعل ذلك كى نريك بعض أدلتنا على عظيم سلطاننا وكامل قدرتنا وبديع تصرفنا فى ملكوت السموات والأرض .

وبعد أن أظهر له هذه الآيات أمره بالذهاب إلى فرعون المتكبر الجبار فقال :

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نقمتى ، فإنه قد تجاوز قدره وتمرد على ربه حتى تجاسر على دعوى الربوبية ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

قال وهب بن منبه : قال الله لموسى : اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى ، وإن معك يدى ونصرى ، وإنى ألبستك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرك ، أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا حتى جحد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، أقسم بعزتى ، لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان علىّ وسقط من

عينى ، فبلغه رسالتى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذّره نقمتى ، وقل له قولا لينا ، لايغتر بلباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، لايطرف ولا يتنفس إلا بعلمى ، قال : فسكت موسى سبعة أيام لايتكلم حتى جاءه ملَك فقال : أجب ربك فيما أمرك ، فحينئذ .

(قال رب اشرح لى صدرى) أى رب وسع لى صدرى ، لأعى عنك ما تودعه فيه من وحيك ، وأجترئ به على خطاب فرعون ، فإنك قد كلفتنى أمرا عظيما لايحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فقد بعثتنى إلى أعظم ملِك على وجه الأرض وأجبرهم وأشدهم كفرا وأكثرهم جندا وأعمرهم ملكا وأطغاهم وأبلغهم تمردا ، وقد بلغ من تمرده أنه لايعلم إلها غيره .

وخلاصة ذلك — اجعلنى رابط الجأش حتى لا أخاف سواك ، ولا أرهب غيرك حين تبليغ رسالتك ، وكن عونى ونصيرى ، وإلا فلا طاقة لى بذلك .

(ويسر لى أمرى) أى سهل علىّ القيام بما تكلفنى به من تبليغ الرسالة ، وتحمّلنى من الطاعة ، وأفض علىّ من القوة مايفى بالعمل على نشر الدين ، وإصلاح حال الخلق .

(واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) أى وأطلق لسانى بالنطق ليفهموا قولى حين تبليغ الرسالة ، وكان فى لسانه حُبْسة تمنعه من كثير من الكلام ، وقد روى أن الحسين رضى الله عنه كان فى لسانه رُتّة (حبسة) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذه ورثها من عمه موسى .

ولما كان التعاون على نشر الدين مع خلوص الود قربة عظيمة لله — طلب موسى المعاونة على ذلك فقال :

(واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) أى واجعل لى عونا من أهل بيتى هرون أخى ، ليحمل معى أعباء الرسالة ، ويكون ظهيرا لى عند الشدائد ، وحلول المكاره ، ولمثل هذا قال عيسى عليه السلام « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ، فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل ، واللذان فى الأرض أبو بكر

وعمر » . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ، إن نسى ذكّره ، و إن نوى خيرا أعانه ، و إن أراد شرا كفه ». وقال أنو شروان : لايستثنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

وقد اختص هرون بأمور منها :

(١) الفصاحة ؛ لقول موسى هو أفصح منى لساناً .

(٢) الرفق لقول هرون : يا ابن أمَّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى .

(٣) الوسامة والجمال و بياض اللون ، وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا .

روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول : أىّ أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا لاندرى . قال : أنا والله أدرى ، قالت فقلت فى نفسى ، فى حلفه لايستثنى ، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قال موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله .

ثم طلب موسى من ربه أن يشد به أزره فقال :

(اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، و يوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

(كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) أى لكى ننزهك عما لايليق بك من الصفات والأفعال التى من بينها مايدعيه فرعون الطاغية، وفئته الباغية من الألوهية له ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى المقصد من الانفراد ، فكل

من النبيَّيْن يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله فى حال الانفراد .

(إنك كنت بنا بصيرا) أى عليما بأحوالنا ، وأن ما طلبناه مما يفيدنا فى تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هرون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين وكبح جماح المضلين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) .

شرح المفردات

السؤل : بمعنى المسئول : أى المطلوب كالخبز بمعنى المخبوز ، منّنا : أى أنعمنا ، مرة أخرى : أى فى وقت آخر غير هذا الوقت ، أوحينا : أى ألهمنا كما جاء فى قوله « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقوله « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي » اقذفيه : أى ألقيه واطرحيه ، واليمّ : البحر . والمراد به هنا نهر النيل ، والساحل : الشاطىء ، ولتصنع على عيني : أى ولتربى وتغذى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشىء بعينيه دلالة على عنايته به ، يكفله :

أى يضمه إلى نفسه ، تقر عينها : أى تسر ، والغم : الكدر الناشئ من خوف شىء أو فوات مقصود ، والفتون : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها ، لبثت : أى أقمت ، مدين : بلد بالشام .

المعنى الجملى

اعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه أمورا ثمانية وكان قيامه بما كلف به لا يتم على الطريق المرضىّ إلا إذا أجابه إليها ـ لاجرم أجابه الله تعالى إلى ماطلب ، ليكون أقدر على الإبلاغ على الوجه الذى كلف به ، ثم ذكره بنعمه السالفة حين كانت أمه ترضعه وتحذر عليه من فرعون ومائه أن يقتلوه ، فألهمها أن تصنع تابوتا وتضعه فيه وتلقيه فى النيل ففعلت ، فألقاه النيل فى الساحل ، فالتقطه آل فرعون وربوه فى منزلهم ، وألقى الله محبة فى قلوبهم له وصار كأنه ابنهم ، ثم ذكره بنجاته من القصاص حين قتل المصرى وهرب إلى مدين .

الإيضاح

(قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى قال الله تعالى لموسى : قد أعطيتك جميع ما سألتنى عنه من شرح صدرك ، وتيسير أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل أخيك هرون وزيرا لك وشد أزرك به وإشراكه فى الرسالة معك .

(ولقد منا عليك مرة أخرى) أى ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة ، ومن راعى مصلحتك قبل سؤلك ، وأعطاك ماترجو ، أفيمنع عنك ماتريد بعد سؤالك؟ ومن رقى بك إلى مراتب الكمال ، وصعد بك إلى أوج المعالى ، وسما بك إلى درجات الرفعة ، ووكل إليك ذلك المنصب الخطير ، أفيليق به وهو الجواد الكريم أن يحجز عنك ماتؤمل مما أنت فى شديد الحاجة إليه لتبليغ رسالته ؟ .

وفى التعبير عن تلك النعم بالمنن إيماء إلى أنها إنما وصلت إليه بمحض التفضل والإحسان .

وقد عد سبحانه من تلك النعم ثمانيا فقال :

(١) (إذ أوحينا إلى أمك مايوحى. أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوّ لى وعدو له) أى واذكر حين ألهمنا أمك وأوقعنا فى قلبها عزيمة صادقة أن أمثل الطرق لخلاصك من فرعون وجبروته ، أن تضعك فى تابوت ـ صندوق ـ ثم تطرح هذا التابوت فى نهر النيل ، ففعلت فألقاك النهر فى الساحل ، فأخذك فرعون عدو الله وربك فى بيته ، وسيصير عدوا لك بعد ذلك كما هو عدو لى.

روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا ووضعته فيه ، وطلت ظاهره بالجص والقار ثم ألقته فى اليم ، وكان يشرع منه (يتفرع) نهر كبير إلى بستان فرعون ، فبينما هو جالس إلى رأس بركة مع زوجه إذا بتابوت يجرى به الماء ، فأمر فرعون غلمانه وجواريه بإخراجه ففعلوا وفتحوا رأسه فإذا صبى من أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا لم يتمالك أن يصبر عنه.

(٢) (وألقيت عليك محبة منى) أى ألقيت عليك محبة خالصة منى قد ركزتها فى القلوب وزرعتها فيها ، ومن ثم أحبك فرعون وزوجه حتى قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » .

(٣) (ولتصنع على عينى) أى ولتربى برعايتى ، فأنا مراقبك وحافظك ، كما يراعى الرجل الشىء بعينيه إذا أراد شدة العناية به ، يقول الرجل للصانع : اصنع هذا على عينى انظر إليه حتى يأتى على وفق ما أحب وأبغى .

(٤) (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) أى وألقيت عليك محبة منى حين تمشى أختك تتبعك متعرفة حتى وجدتك وصادفتهم يطلبون لك مرضعا تقبل ثديها ، حتى اضطروا إلى تتبع النساء ، فلما رأت ذلك منهم جاءت إليهم متنكرة وقالت هل أدلكم على من يضمه إليه ويحفظه ويربيه ؟ فجاءت بالأم فقبل ثديها ورجع إليها بما لطف الله له من التدبير ، وقرت عينها بسلامته ، وزال عنها الحزن والغم الذى كان قد ألمّ بها .

(٥) (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم) أى وقتلت بعد كبرك القبطى الذى وكزته حين استغاث بك الإسرائيلى ، فنجيناك من الغم الذى نزل بك من وجهين :

(ا) عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون كما جاء فى الآية « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » .

(ب) عقابنا إذ قتلته بغير أمر منا فغفرنا لك ذنبك حين قلت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » ووفقناك للهجرة إلى مدين .

(٦) (وفتناك فتونا) أى أوقعناك فى محنة بعد محنة وتفضلنا عليك بالخلاص منها ، فمن ذلك :

(ا) إن أمك حملت بك فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأبناء ، فنجاك الله من الذبح .

(ب) إن أمك ألقتك فى البحر بعد وضعك فى التابوت فالتقطك آل فرعون وعنوا بتربيتك ورعايتك .

(ح) إنك امتنعت عن الرضاع إلا من ثدى أمك وكان ذلك وسيلة إلى إرجاعك إليها .

(ء) إنك أخذت بلحية فرعون فغضب من ذلك وأراد قتلك لولا أن قالت له زوجه : إنه صغير لايفرق بين الجمرة والتمرة وأتى لك بهما فأخذت الجمرة .

(ه) قتلك القبطى وخروجك إلى مدين هاربا .

(٧) (فلبثت سنين فى أهل مدين) قاسيت أثناءها من المحن ما قاسيت ، وتحملت بسبب الفقر والغربة آلاما كثيرة حتى احتجت إلى أن تؤاجر نفسك لشعيب وترعى غنمه .

(ثم جئت على قدر ياموسى) أى ثم جئت على وفق الوقت الذى سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك فيه وأن أجعلك رسولا دون تقدم ولا تأخر عنه ، ولولا توفيق الله لما تهيأ لك شىء من ذلك .

(٨) (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك لإقامة حجتى ، وجعلتك واسطة بينى وبين خلقى فى تبليغ الدين وهدايتهم إلى التوحيد والشرع القويم الذى به صلاح البشر فى دينهم ودنياهم .

وخلاصة ذلك — إنى جعلتك من خواصى واصطفيتك برسالاتى و بكلامى ، فصرت بما آتيتك من كرامة النبوة وجليل النعمة بالمكالمة أشبه بمن يراه الملك أهلا لكرامته فيقربه إليه و يجعله من خواصه وندمائه و يصطنعه بالإحسان إليه فى الحين بعد الحين والفَيْئة بعد الفينة .

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

شرح المفردات

الآيات : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له: فأت بآية ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك ، ولا تنيا: أى لا تفترا ولا تقصرا ، فى ذكرى : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها ، طغى : أى تجاوز الحد ، قولا لينا : أى لا عنف فيه ولا غلظة ، يتذكر : أى يتأمل فيذعن للحق و يؤمن ، يخشى . أى يخاف من بطش الله وعذابه ، يفرط : أى يعجل بالعقوبة، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل،

يطغى : أى يزداد طغيانا ، أسمع وأرى : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل ، فأتياه : أى فقابلاه وجها لوجه ، فأرسل معنا بنى إسرائيل : أى أطلقهم من الأسر ، ولا تعذبهم : أى ولا تبقهم على ماهم عليه من العذاب والتسخير فى شاق الأعمال ، والسلام على من اتبع الهدى : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله الهادية إلى الحق ، تولى : أى أعرض .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه المنن الثمانية بإزاء ما طلبه موسى من المطالب الثمان ـ شرع يذكر الأوامر والنواهى التى طلب إليه أن يقوم بتنفيذها ويؤدى الرسالة على النهج الذى أمره به .

الإيضاح

(اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) أى اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقومه ، وإنى ممدكما بحججى وبرهاناتى الدالة على صدق نبوتكما ، وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل والمعاذير ، ولا تفترا فى دعوتهم وتبليغ الرسالة إليهم ، فبينّا لهم أن الله أرسلكما إليهم مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه .

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أى اذهبا معا إلى فرعون وناضلاه الحجة بالحجة وقارعاه البرهان بالبرهان ، لأنه طغى وتجبر وتمرد حتى ادعى الربوبية فقال أنا ربكم الأعلى .

وتخصيص فرعون بالدعوة آخرا بعد أن كانت الدعوة عامة أوّلا ، من قبَل أنه إذا صادفت الدعوة من فرعون أذنا صاغية ، واستجاب لدعوتهما وآمن بهما تبعه المصريون قاطبة كما قيل : الناس على دين ملوكهم .

ثم بين لهما سبيل الدعوة فقال :

(فقولا له قولا لينا) أى فكلماه بكلام رقيق لين ليكون أوقع فى نفسه وأنجع فى استجابته للدعوة ، فبرقيق القول تلين قلوب العصاة ، وتنكسر سَوْرة الطغاة ، ومن ثم جاء الأمر به لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

ومن هذا ما حكى الله بعضه عن موسى فى قوله لفرعون : « هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وقوله له: « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ».

ثم علل الأمر بالإلانة القول بقوله :

(لعله يتذكر أو يخشى) تقدم أن قلنا إن لعل فى مثل هـذا لتوقع حصول ما بعدها : أى أديا الرسالة ، وقوما بتنفيذ ما دعوتكما إليه ، واسعيا إلى إنجازه سعى من يرجو و يطمع أن يثمر عمله ، ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد قدر استطاعته ، و يحتشد بأقصى وسعه آملا أن تكلل أعماله بالنجاح والفوز والفلاح .

وقصارى ذلك — اصدعا بالأمر وأنتما طامعان أن أعمالكما ستثمر ، وأنكما ستهديانه إلى سواء السبيل ؛ وقد جرت العادة أن من رجا شيئا طلبه ، ومن يئس انقطع عمله ، والمقصد من ذلك إلزامه الحجة ، وقطع المعذرة ، و إن لم يفد هدايته .

(قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أوأن يطغى) أى قال موسى وهرون : ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه ، أن يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة و إظهار المعجزة ، أو يزداد طغيانا فيقول فى شأنك ما لاينبغى ، لعظيم جرأته ، وقساوة قلبه ، وفجوره وشديد عصيانه .

(قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) أى قال الله لهما : لاتخافا فرعون إننى معكما بالنصرة والتأييد والحفظ من غوائله ، و إننى أسمع وأرى ما يجرى بينكما و بينه من قول أو فعل وأحدث فى كل حال ما يصرف شره عنكما .

والخلاصة — لست بغافل عنكما ، و إنى سأفعل ما يؤدى إلى حفظكم ونصركم عليه ، فلا تأبها به ، ولا تهتما بأمره .

(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) أى فقابلاه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك ـ وقد أمرا بتبليغه ذلك من أول وهلة ، ليعرف لهما حقهما ، ويفكر فيما يقابلهما به من الرد على ما ادعيا .

وفى التعبير بقولهما (ربك) إيماء إلى أن ما ادعيته من الربوبية لنفسك ، مما لاينبغى أن يلتفت إليه ، ولا أن ينظر إليه نظرة الاعتبار والصدق .

(فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) أى فأطلق بنى إسرائيل من الأسر ، ولا تعذبهم بتسخيرك إياهم فى شاقّ الأعمال كالحفر والبناء ونقل الأحجار ، وقد كان المصريون يستخدمونهم هم ونساءهم فى تلك الأعمال .

وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة هذا الطاغية وقومه إلى الإيمان ، لأنه أخف وأسهل من ذلك ، لما فيه من تبديل الاعتقاد وهو عسر شاقّ على النفس .

ثم ذكرا ما يوجب امتثال أمرهما ، ويؤكد دعوى رسالتهما بقولهما .

(قد جئناك بآية من ربك) أى قد جئناك بالحجة البالغة والبرهان الساطع على أنه أرسلنا إليك ، وإن لم تصدقنا فيما نقول أرينا كها .

(والسلام على من اتبع الهدى) أى والسلامة والأمن من العذاب فى الدنيا والآخرة لمن اتبع رسل ربه ، واهتدى بآياته التى ترشد إلى الحق وتنيل البغية ، وتبعد عن الغى والضلال .

قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب اه .

ويمثل هذا كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هِرَقْل ملك الروم قال : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لايخفى .

ثم ذكرا علة لما سبق لهما من النصح والإرشاد بقولهما .

(إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى إنا قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن عذابه الذى لانفاد له ولا انقطاع فى الدنيا والآخرة ، على من كذب بما ندعو إليه من توحيد الله وطاعته و إجابة رسله ، وأدبر معرضا عما جئناه به من الحق .

وجاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » وقوله : « فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وقوله : « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) .

شرح المفردات

أعطى كل شىء خلقه : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع ، ثم هدى : أى ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطى له ، البال : الفكر؛ يقال خطر ببالى كذا، ثم أطلق على الحال التى يعتنى بها وهو المراد هنا

فى كتاب : أى دفتر مقيد فيه؛ والمراد بذلك كمال علمه الذى لايضيع منه شىء ، ضل الشىء : أخطأه ولم يهتد إليه ، ونسيه : ذهب عنه ولم يخطر بباله ، والمهد : ما يمهد للصبى ويفرش له : أى جعل الأرض كالمهد ، وسلك : أى سهل ، والسبل : واحدها سبيل : أى طريق ، أزواجا : أى أصنافا ، شتى : واحدها شتيت كمريض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل ، لآيات : أى لدلالات ، والنهى واحدها نهية ، (بالضم) العقل سمى به لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

المعنى الجملى

اعلم أن موسى وهرون عليهما السلام سارعا إلى الامتثال وجاءا فرعون وأبلغاه ما أمرا به ، فسألهما سؤال الإنكار والجحد للصانع الخالق لكل شىء وربه ومليكه ، ودار بينهما من الحوار ما قصه الله علينا .

روى عن ابن عباس أنهما لما جاءا إلى بابه أقاما حينا لايؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فدخلا وكان من الحوار ما أخبرنا الله به .

الإيضاح

(قال فمن ربكما يا موسى) أى إذا كنتما رسولى ربكما الذى أرسلكما فأخبرانى من ربكما الذى أرسلكما ؟ .

وإنما خص موسى بالنداء مع توجيه الخطاب إليهما ، لما ظهر له أنه هو الأصل وهرون وزيره .

فأجاب موسى عن سؤاله :

(قالا ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) أى ربنا الذى أعطى كل شىء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم .

(ثم هدى) أى ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه ويرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوان وإما طبعا كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا — ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق بما قدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

وبعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر — شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا هذا الإله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قال فما بال القرون الأولى ؟) أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟ .

فأجاب موسى :

(قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) أى إن ذلك من علوم الغيب التى لا يعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لا يشذ عنه شىء ولا يفوته شىء لا كبير ولا صغير ، ولا ينسى شيئا ، وسيجزيهم بما عملوا جزاء وفاقا .

وقصارى ذلك — إن علمه تعالى محيط بكل شىء ، وأنه لا ينسى شيئا تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتريه النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها .

وإنما سأل فرعونُ هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة فيستبين للناس صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التى لا تعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز فى رده ، ووكل أمر ذلك إلى ربه .

وإجمال سؤاله — إنه إذا كان الأمر كما ذكرت ففصل لنا حال الماضين من سعادة وشقاء ، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله .

ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوحدانية فقال :

(الذى جعل لكم الأرض مهدا) أى ربى الذى لايضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد تتمهدونها وتستقرون عليها ، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها .

(وسلك لكم فيها سبلا) أى وجعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا مآربكم ، وتنتفعوا بمرافقها .

ونحو الآية قوله : « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » .

(وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) أى وأنزل من السماء مطرا فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة ؛ وهى أيضا مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للإنسان ، وبعضها يصلح للحيوان ؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع .

(كلوا وارعوا أنعامكم) أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وارعوا أنعامكم الخ . فشىء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم ، وشىء أعد لأنعامكم قوتا لها أخضر ويابسا .

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه — لأدلة على وحدانيته وأنه لاإله غيره إذا كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة .

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء بين أنها غير مقصودة لذاتها ، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال :

(منها خلقناكم) أى من الأرض خلقنا النطفة المتولدة من الأغذية التى تكونت

منها بوسائط ، إذ الغذاء إما حيوانى و إما نباتى ، والحيوانى ينتهى إلى نباتى ، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء بالتراب .

(وفيها نعيدكم) أى وفى الأرض نعيدكم بعد مماتكم فتصيرون ترابا كما كنتم قبل نشأتكم .

(ومنها نخرجكم تارة أخرى) أى وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرة أخرى بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ، ثم نرد الأرواح من مقرها إليها .

وجاء بمعنى الآية قوله : « فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » وقوله: « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » وفى الحديث «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ، ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى» ، وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال: «لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله » .

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) .

شرح المفردات

أبى امتنع ، موعد : أى ميعادا معينا ، سوى : أى مستويا لاجبل فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة ، يوم الزينة : يوم عيد كان لهم ، يحشر الناس : أى يجمعون ، والضحى : وقت ارتفاع النهار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى - قفى على ذلك ببيان أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وقوله: الذى جعل لكم الأرض مهدا ، والدالة على نبوته كإلقاء العصا وصيرورتها ثعبانا ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، فعلم كل هـذا وكذب به كفرا وعنادا كما قال : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » الآية .

الإيضاح

(ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) أى ولقد بصرنا فرعون وعرّفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وعلى نبوة موسى فكذب بها وأبى أن يذعن للحق ، وقد يكون المراد بها الآيات التسع المذكورة فى قوله : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

ثم فصل سبحانه صفة تكذيبه و إبائه فقال :

(قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟) أى قال منكرا مستقبحا لما فعل موسى : أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ماغبت عنا ، لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر ؟ إذ تستولى على عقول الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم .

وخلاصة ما قال — أجئت ياموسى لتوهم الناس بأنك نبى يجب عليهم اتباعك والإيمان بما جئت به إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها و يكون لك الملك فيها، و إنما قال تلك المقالة ليحمل قومه على السخط على موسى والغضب منه ، بإظهار أن مراده ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم ، بل مقصوده إخراج القبط من أوطانهم وحيازة أموالهم وأملاكهم جملة ، و بذا يسد عليه الباب فلا يتوجه أحد إلى اتباع دعوته مبالغة فى المدافعة عن بلادهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولا ينظرونه إلى معجزاته ولا يلتفتون إلى مايدعو إليه من الخير ، ثم ادعى أنه سيعارضه بمثل عمله فقال :

(فلنأتينك بسحر مثله) أى فو الله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فإن عندنا مثل ماعندك ، فلا يغرنّك ما أنت فاعل .

(فاجعل بيننا و بينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت) أى فاجعل بيننا و بينك ميقاتا وموعدا نجتمع نحن وأنتم فيه فنعارض ماجئت به بما عندنا من السحر .

و إنما قال تلك المقالة ليبين أنه قوى القلب جَلْدٌ متمكن من تهيئة وسائل المعارضة ، وترتيب أسباب المغالبة ، طال الأمد أو قصر .

(مكانا سوى) أى ويكون الاجتماع فى مكان مستو من الأرض لاانخفاض فيه ولا ارتفاع ، فلا جبال ولا وهاد تستر بعض الحاضرين عن بعض .

وقصارى ذلك — عين لنا زمان المقابلة ومكانها على ألا يكون فيه مايستر أحدا من الناس عن أحد ليروا ما يصدر منك ومن السحرة .

وغير خاف مافى ذلك من إظهار الجلد وقوة الوثوق بالغلبة .

ثم ذكر رد موسى على ماطلب فقال :

(قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) أى قال موسى : ميعادكم للاجتماع يوم عيد النيروز وكان رأس سنتهم حين يفرغ الناس من أعمالهم ويجتمعون ، ليكون الحفل عاما و يتحدث الناس بذلك الأمر العجيب فى القرى والأمصار ، فتعلو كلمة الله و يظهر دينه و يزهق الباطل و ينتصر الحق على رءوس الأشهاد .

وفى ذلك من وضوح الحجة مالا خفاء فيه ، ومن وثوقه بفلجه على خصمه ، وعدم مبالاته به .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

شرح المفردات

فتولى فرعون : أى انصرف عن المجلس ، كيده : أى مايكيد به من السحرة وأدواتهم ، أتى : أى أتى الموعد ومعه ماجمعه من الأعوان والسحرة ، ويلكم : أى هلاك لكم ، والافتراء : الاختلاق والكذب ، فيسحتكم بعذاب : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد ، فتنازعوا : أى تفاوضوا وتشاوروا ، وأسروا النجوى : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم ، بطريقتكم المثلى : أى بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه ، صفا : أى مصطفين ، لأنه أهيب للصدور ، أفلح : أى فاز بالمطلوب ، استعلى : أى غلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه وهو يوم عيد لهم ـ أردف ذلك بذكر مادبره فرعون بعد انصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك ، ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لاقبل لهم به إن أقدموا على ماهم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، وبالغوا فى إخفاء مايريدون ، وقالوا ماموسى وهرون إلا ساحران يريدان أن يغلبا كم ويخرجا كم من دياركم ويرجوان أن تتركا دينكم وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقوا دينهما ، فحذار أن تفعلوا ذلك ولا يتخلفنّ منكم أحد وائتوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

الإيضاح

(فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) أى فانصرف عن مجلس الحجاج والمناظرة ، وشرع يُعِدّ مايكيد به من السحرة وآلاتهم وأنصاره وأعوانه ، وكثير ماهم ، ثم أقبل فى الموعد الذى عين ومعه جمعه ، وجلس على سرير ملكه وحوله أكابر دولته ، واصطفت الرعية يَمْنة ويَسْرة ، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هرون ، ووقف السحرة صفوفا بين يدى فرعون يحرضهم ويستحثهم ويرغبهم فى جودة العمل ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ، وقد جاء فى سورة الشعراء : « قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ما كان من موسى حينئذ فقال :

(قال لهم موسى لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) أى قال موسى للسحرة : لاتختلقوا الكذب على الله ولا تتقولوه عليه ، بأن تدّعوا أن الآيات التى ستظهر على يدىّ سحر كما فعل فرعون ، فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ولا يبقى منكم ولا يذر .

(وقد خاب من افترى) على الله الكذب ولم يفلح فى سعيه ولم يصل إلى غرضه ، فابتعدوا عن اختلاق الأكاذيب ، ولا تضلوا سواء السبيل ، حتى لايصيبكم ما أصاب المفترين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولما سمع السحرة كلام موسى وهرون هاجهم ذلك .

(فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) أى فتشاوروا وتفاوضوا ماذا يفعلون ، وبالغوا فى كتمان مايقولون عن موسى وأخيه حتى لايسمعا مايدور من القول ، فيعدّا للأمر عُدته ، ويُهيئا وسائل الدفاع ، ومن الطبعى فى مثل هذه الأحوال أن يُخفى أحد المتخاصمين كل مايدبره من وسائل الفوز والفلج عن خصمه الآخر .

ثم بين سبحانه خلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور بقوله :

(قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى إن السحرة قالوا فيما بينهم : إن هـذا الرجل وأخاه ساحران خبيران بصناعة السحر ، وهما يريدان أن يغلباكم وقومكم ويخرجاكم من دياركم وتخلص لهم الرياسة دونكم .

وخلاصة ما قالوه التنفير منهما لوجوه ثلاثة :

(١) الطعن فى نبوتهما ونسبتهما إلى السحر ، وكل ذى طبع سليم ينفر من السحر ويبغض السحرة ويعلم أن السحر لابقاء له ، ولا ينبغى اتباع من جاء به ولا اعتناق مذهبه وطريقته .

(٢) إنّ بغيتهما إخراجكم من أرضكم ، ومفارقة الوطن شديدة الوطأة على النفوس ومن ثم قال فرعون : « أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى » .

(٣) إنهما يريدان أن يستوليا على جميع المناصب والرياسات ، ولا يبقيا شيئا من شئون الدولة والتصرف فى أمورها العامة . وإجمال هذا ـ إنهما إذا تم لهما الأمر أخرجاكم من دياركم ، وتمحضت لهما الرياسة دونكم .

ثم بين السحرة مايجب لمقابلة هذا الخطر الداهم والبلاء المقبل فقالوا :

(فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا) أى لاتدعوا شيئا من كيدكم إلا جئتم به كما جاء فى آية أخرى « فَجَمَعَ كَيْدَهُ » ثم ائتوا مصطفين مجتمعين ، وألقوا مافى أيديكم دفعة واحدة لتبهروا الأبصار وتعظم هيبتكم لدى النظّارة فى هذا المشهد الحافل .

(وقد أفلح اليوم من استعلى) أى وقد فاز بالمطلوب من غلب منا ، أما نحن فقد وعدنا بالعطاء الجزيل والقرب من الملك: « قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وأما هو فسينال الرياسة ، وما مقصدهم من ذلك إلا تشديد العزائم وحفز الهمم ، ليبذلوا أقصى الجهد للفوز والفلج بالمطلوب .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) .

شرح المفردات

إيجاس الخوف : الإحساس بشيء منه ، مافى يمينك : هى العصا ؛ وأبهمها تفخيما لشأنها ، وتلقف : تبتلع بقوة وسرعة ، صنعوا : أى زوّروا وافتعلوا ؛ كيد ساحر : أى كيد سحرىّ لاحقيقة له ولا ثبات ، حيث أتى : أى أينما كان ، كبيركم : أى

زعيمكم ومعلمكم. قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبيرى ، من خلاف : أى من حال مختلفة فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى، أشد عذابا : أى أدوم ، نؤثرك : أى نفضلك ونختارك ، فطرنا : أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم ، فاقض : أى فاحكم ، جنات عدن : أى جنات أعدت للإقامة ، من تحتها : أى من تحت غرفها ، تزكى : أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة ، وذكر أنهم قالوا ائتوا صفا ـ ذكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بإلقاء مامعه ، وأن يبدءوا هم ، فاختار الثانية ، وحين بدءوا فألقوا حبالهم وعصيهم خاف موسى عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ» فسيكون لك الفلج والظفر عليهم ، وقد تحقق ما وعد الله به ، وكتب له النصر وآمن به السحرة ، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار ، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم فى جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالازدراء والسخرية ، وقالوا إنما أنت مسلط علينا فى هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لايعدوها ، وما عند الله من العذاب لايضارعه عذاب ، وما عنده من الثواب لايقدر قدره ، ففى جناته التى تجرى من تحتها الأنهار مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) أى فأجمع السحرة كيدهم ثم أتوا صفا فقالوا لموسى : اختر لك أحد الأمرين ، إما أن تلقى ما معك ، وإما أن نلقى ما معنا .

وهذا التخيير منهم حسن أدب معه وتواضع منهم وتنبيه إلى إعطائه النصفة

من أنفسهم ، وكأن الله ألهمهم ذلك وعلّم موسى أن من الخير له اختيار إلقائهم أولا ، لأنهم إذا أبرزوا ما معهم من مكايد السحر واستنفدوا أقصى مجهودهم، أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين ، ومن ثم قال :

(قال بل ألقوا) أى بل ألقوا أنتم أوّلا لنرى ما تصنعون من السحر ، ويظهر للناس حقيقة أمركم ، وحين ألقوا : « قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » .

(فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) أى فألقوا ما معهم من الحبال والعصىّ فخيل إلى موسى أنها تمشى ، وجاء فى آية أخرى : « فَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » .

قيل إنهم حشوها بالزئبق الذى من طبعه أن يتأثر سريعا بحرارة الشمس ، فما أسرع ما تحركت تلك الحبال والعصى حين سقطت عليها أشعة الشمس ، فامتلأ الوادى بحيات يركب بعضها بعضا .

وخلاصة ذلك — إنهم حشوها بزئبق أو بمادة أخرى إذا وقعت عليها الشمس اضطربت وتحركت واتصل بعضها ببعض ، فمن رآها ظن أنها تمشى وتسعى .

(فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى فأحس موسى بشئ من الخوف حين فوجئ بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية حين ترى الأمر المهول المخيف .

ثم أبان سبحانه أنه ربط على قلبه فقال :

(قلنا لا تخف) أى قلنا له : هدئ روعك واطمئن بالا .

ثم علل ذلك بقوله :

(إنك أنت الأعلى) أى إنك ستنتصر عليهم وستكون لك الغلبة ، فالعاقبة للمتقين .

(وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا) أى وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس حتى خيل إليك أنها تسعى .

وإنما أوثر إبهام العصا تهويلا لأمرها ، وتفخيما لشأنها ، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصىّ المعهودة ، لما سينشأ عنها من عجيب الأثر وغريب الصنع .

(إن ما صنعوا كيد ساحر) أى إن الذى فعلوه بعد تدرّب كثير وممارسة طويلة كيد سحرى لا حقيقة له ولا بقاء .

وخلاصة ذلك — إن الذى معك يا موسى معجزة إلهية ، والذى معهم تمويه وتلفيق ظاهر عليه الزور والبهتان ، فكيف يتعارضان ؟ .

(ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى ولا ينال الساحر مقصوده بالسحر ، خيرا كان أو شرا حيثما كان .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على أنه امتثل أمر ربه وألقى العصا وكان ما وعد به من تلقفها لما صنعوا فقال :

(فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) أى فألقى ما فى يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا وظهر للسحرة جليّة الأمر وأن ما عمله ليس بالسحر ، فهو ليس من فنون السحر التى حذقوها ، ولا من أنواع الحيل التى عرفوها ، وإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا يقدر على مثله إلا من يقول للشىء كن فيكون ، حينئذ وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون .

روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام على وجود الصانع القادر ، وبظهورها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله ، لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا وهم خاضعون ساجدون .

قال صاحب الكشاف — سبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود .

روى عن ابن عباس أنه قال : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء بررة؛ وروى عنه عكرِمة أنه قال: كان السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

وإنما قالوا برب هرون وموسى ولم يقتصروا على قولهم (رب العالمين) لأن فرعون كان قد ادعى الربوبية فقال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » والألوهية إذ قال : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي » فلو قالوا ذلك فحسب لقال فرعون : آمنوا بى ، وإنما لم يقتصروا على ذكر موسى بل ذكروا هرون وقدموه عليه خوفا من هذه الشبهة أيضا ، إذ أن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى ، لأنه رباه فى صغره كما قال: « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » .

ولما خاف فرعون أن يصير ذلك سببا لاقتداء الناس بهما فى الإيمان بالله ورسوله ألقى شبهة فى النبى ونبوته .

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) أى إنكم قد فعلتم جريرتين وارتكبتم جرمين :

(١) إنكم آمنتم له قبل البحث والتفكير ، فإيمانكم لم يكن عن بصيرة وأناة فلا يعتدّ به .

(٢) إنكم تلاميذه فى السحر ، فتواطأتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لدعوته وتفخيما لأمره .

وبعد أن أورد هذه الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم من الإيمان ، وتحذيرا لغيرهم عن الاقتداء بهما فقال :

(فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى أقسم بالله لأقطعنها مختلفات ، بأن تقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى ، وإنما اختار ذلك دون القطع من وفاق ، لأن فيه إهلاكا وتفويتا للمنفعة .

(ولأصلبنكم فى جذوع النخل) زيادة فى إيلامكم وتشهيرا بكم .

وخلاصة ذلك — لأجعلنكم مثلة ، ولأزيلن مالكم من منافع ولأشهرنّ بكم ، قال ابن عباس فكان أول من عذب بهذا العذاب .

(ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) أى ولتعلمُن أنا أو موسى أشد عذابا وأبقى .

وفى ذلك إيماء إلى اقتداره وقهره و بيان ما ألفه وضَرِى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب ، كما فيه تحقير لشأن موسى واستضعاف له مع السخرية منه .

ثم لما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم فى الله .

(قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) أى لن نختارك بالإيمان والانقياد على ما جاءنا من الله على يد موسى من المعجزات التى اشتملت عليها العصا .

وفى هذا إشارة إلى أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان بموسى ، و إلا فعل بهم ما أوعدهم به .

(والذى فطرنا) أى لن نختارك على ما جاءنا من الهدى ، وعلى فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم ، إذ هو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت .

ولما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان ، فعل فرعون ما أوعدهم به قالوا :

(فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، فوعيدك لا يزحزحنا عن إيماننا واطمئناننا بما صرنا إليه .

ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا :

(إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما لك تسلط علينا فى هذه الدار دار الزوال ونحن نرغب فى دار البقاء .

وقصارى ردهم — إنك إنما تصنع ما تهوى فى هذه الدنيا فحسب ، و إنا لا نأبه بنعيمها ولا نرهب عذابها .

(إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) أى إنا آمنا بربنا المحسن إلينا طوال أعمارنا ، ليستر ما اجترحنا من الذنوب والآثام ، ولا سيما ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آيات الله ومعجزاته .

روى الحسن أن السحرة الذين حشدوا من المدائن ليعارضوا موسى ، أحضروا مُكْرَهين ، وأكرهوا على إظهار السحر ، وروى أن رؤساء السحرة كانوا اثنين

وسبعين ، اثنان منهم من القبط ، والباقون من بنى إسرائيل أكرههم فرعون على تعلّم السحر .

(والله خير وأبقى) أى والله خير منك جزاء وأدوم ثوابا مما كنت دعوتنا إليه ومنيتنا به .

ولم يرد دليل على أنه نفذ ما صمم عليه فى عقابهم ، ولكن الراجح أنه نفذ ذلك كما يرشد إلى ذلك قول ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء برره .

ثم ختم السحرة كلامهم بشرح أحوال المجرمين وأحوال المؤمنين يوم العرض والحساب عظة لفرعون وتحذيرا له من نقمة الله وعذابه السرمدى وترغيبا له فى ثوابه الأبدى .

(إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيا) أى من يلق الله وهو مجرم بكفره ومعاصيه فإن له جهنم لايموت فيها فينتهى عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم المقيم ، قال المبرد : لايموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحى ويبلغ به حالة الموت فى المكروه ، إلا أنه لايبطل فيها عن إحساس الألم ؛ والعرب تقول : فلان لا حى ولا ميت . إذا كان غير منتفع بحياته .

كما قالت زوج صخر حين سئلت عنه وهو مريض : لا هو حىّ فيرجى ، ولا ميّت فينعى .

ونحو الآية قوله : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ » وقوله : « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » وقوله : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » .

(ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى ومن لقى ربه مؤمنا به وبما جاء به رسوله من عنده من المعجزات التى من جملتها ما رأيناه وشاهدناه ثم عمل صالح الأعمال فهؤلاء لهم بسبب إيمانهم وجليل أعمالهم المنازل الرفيعة والدرجات العالية .

وفى الصحيحين : «إن أهل عليين ليَرَوْنَ مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب العابر فى أفق السماء لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء ، قال بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» . وفى السنن: إن أبا بكر وعمر لمنهم ونعمّا .

ثم فسر تلك الدرجات العلى بقوله :

(جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى تلك الدرجات العلى هى جنات إقامة تجرى من تحت غرفها الأنهار ماكثين فيها أبدا .

ثم بين سبب فوزهم بهذا النعيم فقال :

(وذلك جزاء من تزكى) أى وذلك الفوز الذى أوتوه جزاء لهم على طهارة أنفسهم من دنس الكفر ومن تدسية أنفسهم بأوضار الذنوب والآثام ، وعلى عبادتهم لله وحده لاشريك له واتباعهم للنبيين والمرسلين فيما جاءوا به من عند ربهم .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) .

شرح المفردات

السرى والإسراء : السير ليلا ، اضرب لهم : أى اجعل لهم ، يبسا : أى طريقا يابسا لا ماء فيه ، والدرك (بالفتح والسكون) : الإدراك واللحوق ، تخشى : أى تخاف

غرقا ، وأتبع وتبع: بمعنى ، فغشيهم من اليمّ ماغشيهم : أى فغمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل الذى لايعلم كنهه إلا الله ، وأضل فرعون قومه : أى سلك بهم مسلكا أدّاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم إذ أغرقوا فأدخلوا نارا ، وما هدى : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة ، الأيمن : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام ، المنّ : نوع من الحلوى يسمى الترنجبين ، والسلوى : طائر شبيه بالسُّمَانَى ، ولا تطغوا فيه : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه فيحل عليكم غضبى : أى ينزل بكم ، هوى : سقط وهلك ، غفار : كثير المغفرة والستر للذنوب ، اهتدى : أى لزم الهداية واستقام .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص موسى مع سحرة فرعون وأنه تم له الغلب عليهم وأن السحرة آمنوا به وأن فرعون أبى أن يذعن للحق وتمادى هو وقومه فى العناد والإعراض عن سبيل الرشاد ـ أردف ذلك بذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور، وطوى فى البين ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غُلبت السحرة ـ من الآيات المفصلة التى حدثت على يد موسى فى مدى عشرين سنة على حسب ما فصل فى سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث فى عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلا من مصر ، ثم عدد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان يُنزل بهم ضروبا من الظلم : من قتل و إذلال وتعب فى الأعمال ، وأنه ذكر أنه أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلوى ، وأنه أمرهم بأكل

الطيبات من الرزق وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

الإيضاح

(ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى) أى ولقد أوحينا إلى نبينا موسى حين تابعنا له الحجج على فرعون فأبى أن يستجيب لأمر ربه وتمادى فى طغيانه : أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من هذا الطاغية ، واخرج بهم من مصر ، فاتخذ لهم طريقا يابسا فى البحر ولا تخف من فرعون وقومه أن يدركوك ولا تخش أن يغرقك البحر .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل (بعبادى) إظهار للعناية بأمرهم والرحمة لهم ، وتنبيه إلى قبح صنيع فرعون بهم ، إذ هو قد استعبدهم وفعل بهم من ضروب الظلم مافعل ولم يراقب فيهم مولاهم الحق .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ماغشيهم) أى ولما سرى بهم موسى أتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر فغشيهم من اليم ما لاسبيل إلى إدراك كنهه، فغرقوا جميعا .

(وأضل فرعون قومه وما هدى) أى وقد سلك بقومه سبيل الضلال فى دينهم ودنياهم ، وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، وفى هـذا تهكم به إذ قال « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

ثم شرع سبحانه يعدد نعمه على بنى إسرائيل فقال :

(١) (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حين كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وأقررعينكم منهم إذ أغرقهم وأنتم تنظرون كما قال : « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » .

(٢) (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) فكلمناك تكليما وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل شريعتك .

(٣) (ونزلنا عليكم المن والسلوى) فكان ينزل عليكم المن وأنتم فى التيه مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم مايكفيه .

(كلوا من طيبات مارزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

(ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) أى ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ومنع الحقوق الواجبة فيه ، فينزل عليكم غضبى ، وتجب عليكم عقوبتى .

(ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى ومن ينزل به غضبى فقد شقى وهلك .

(وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) أى وإنى لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقلع عن ذنبه ، ويخلص لى فى العمل ويؤدى فرائضى ويجتنب معاصىّ ويستقيم حتى الموت .

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ اولاَءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) .

شرح المفردات

يقال جاء على أثره (بفتحتين وبكسر فسكون) : إذا جاء لاحقا به بلا تأخير ، فتنا قومك : أى اختبرناهم ، وأضلهم : أى أوقعهم فى الضلال والخسران ، والسامرى: من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى ، والأسِف : الحزين ، والوعد الحسن : إعطاء التوراة التى فيها هدى ونور، والعهد : زمان الإنجاز ، موعدى: أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف ، بملكنا: أى بتدرتنا واختيارنا ، والأوزار : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط ، فقذفناها : أى طرحناها فى النار ، جسدا : أى جثة لاروح فيها ، والخوار : صوت العجل ، فنسى : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور ، أن لايرجع إليهم قولا : أى لايردّ عليهم جوابا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : أى لايقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أوحى إلى موسى أن يخرج هو وقومه من مصر ليلا ويخترق بهم البحر ولا يخشى غرقا ولا دركا من فرعون وجنده ، وأن البحر أغرق فرعون وقومه جميعا حينما أرادوا اللحاق ببنى إسرائيل ، ثم عدد نعمه عليهم من إنجائهم من عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم ، ثم أمرهم بأكل الطيبات من الرزق ونهاهم عن الطغيان ، ثم ذكر أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ـ أعقب هذا بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام حين موافاته الميقات على حسب

المواعدة التى ذكرت آنفا ، وبما حدث من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ورجوع موسى إليهم غضبان أسفا ، ثم معاقبته لهم على ماصنعوا ، ثم ذكر الحيلة التى فعلها السامرى حين أخرج لهم من حليهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووبخهم بأن هذا العجل لايجيبهم إذا سألوا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى دينهم ولا دنياهم .

الإيضاح

(وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟) المراد بالقوم النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أىّ شىء عجل بك عن قومك وجعلك تتقدم عليهم ؟

والمراد الإنكار عليه فى تقدمه عليهم، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة فى ذاتها أيضا ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

(قال هم أولاء على أثرى) أى قال موسى مجيبا ربه : هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لايعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها بعض الرفقة على بعض .

(وعجلت إليك رب لترضى) أى وعجلت إليك رب لتزداد عنى رضا ، بالمسارعة إلى امتثال أمرك ، والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرته — إنى اجتهدت أن أتقدم عن قومى بخطا يسيرة ، ظنا منى أن مثل ذلك لاينكر ، فأخطأت فى اجتهادى ، وقد حملنى على ذلك طلب الزيادة فى مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارعة إلى الميعاد ، والموعودُ بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

(قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أى قال سبحانه لموسى : فإنا قد اختبرنا

قومك الذين خلفتهم مع هرون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هرون اه . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما .

(وأضلهم السامرى) أى دعاهم إلى الضلال باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى فانصرف موسى إلى قومه بنى إسرائيل بعد انقضاء الليالى الأربعين ـ مغتاظا من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله . روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة .

قال القرطبي : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ثم إنهم يضربون بالقضيب على شىء من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئاياً كلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟ فأجاب : يرحمك الله مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما الطبل فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه ، كأنما على رءوسهم الطير من الوقار ، فينبغى للسلطان أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم ، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين اه .

(قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) لاسبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة

بقوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .

(أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى؟) أى أفطال عليكم الزمان فنسيتم وعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل مايكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك — أفطال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟

(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأنا لم نملك أمرنا ، فلو خلينا وأنفسنا ولم يسوّل لنا السامرى ماسوّله ، لما أخلفنا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة .

وقصارى كلامهم : إن السامرى سول لنا ماسول وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك .

(ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها) أى ولكن غلبنا موسى السامرى ، إذ حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حُبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونملأها نارا وأن نقذف الحلى فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أى آثاما لأنه لايحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم .

(فكذلك ألقى السامرى) أى فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقى السامرى ما كان معه منها .

(فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) أى فأخرج لهم من تلك الأثقال التى

قذفوها جسد عجل من ذهب لاروح فيه ، وله خوار كخواره ، إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيه أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله فى اتجاهه .

(فقالوا هذا إلهكم و إله موسى فنسى) أى فقال السامرى ومن افتتن به أول ما رآه. هذا هو إلهكم و إله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .

فرد عليهم سبحانه مقبحا أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

(أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟) أى أفلا يعتبرون و يتفكرون فى أن هذا العجل لايرجع إليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا ، وأنه لايقدر أن يدفع عنهم ضرا ولا يجلب لهم نفعا .

وقصارى مايقول — إنه عاجز عن الخطاب وعن النفع والضر فكيف يتخذونه إلها .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَمِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ

نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) .

شرح المفردات

فتنتم به : أي وقعتم في الفتنة والضلال ، فاتبعوني : أي في الثبات على الحق ، لن نبرح : أي لانزال ، عاكفين : أي مقيمين ، بلحيتي ولا برأسي : أي بشعر لحيتي ولا بشعر رأسي ، خشيت : أي خفت ، ولم ترقب قولي : أي ولم تراع ، فما خطبك : أي ماشأنك وما الأمر العظيم الذي صدر منك ، بصرت بما لم يبصروا به (بضم الصاد فيهما): أي علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر بالشيء إذا علمه وأبصره إذا نظر إليه، والرسول موسى عليه السلام ، وأثره سنته ، فنبذتها: أي طرحتها ، وسولت لي نفسي : أي زينت وحسنت ، لامساس : أي لامخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحدا، فعاش وحيدا طريدا ، لن تخلفه : أي سيأتيك به الله حتما . ظلت (أصله ظللت دخله حذف) : أي أقمت ، لنحرقنه : أي لنبردنّه بالمبرد ، لننسفنه : أي لنذرينه ، في اليمّ: أي في البحر ، وسع كل شيء علما : أي وسع علمه كل شيء وأحاط به .

المعنى الجملي

بعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لايستجيب لهم دعاء ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ــ أكد هذا وزاد عليهم في التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذي نبههم إلى خطإ مافعلوا ، ثم حكى معاتبة موسى لهرون على سكوته على بني إسرائيل وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذر له ولكنه لم يقبل معذرته ، ثم قص علينا ما قاله السامري وما أنّبه به موسى وما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نسفه و إلقائه في البحر ، ثم بين لهم

أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لاذاك الجماد الذى لايضر ولا ينفع ، ولا يرد جوابا ولا يسمع خطابا .

الإيضاح

(ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى ولقد قال هرون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحا لهم من قبل رجوع موسى إليهم : ياقوم إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاك فى دينه .

(وإن ربكم الرحمن) أى إن خالقكم وخالق كل شىء هو الذى عمت رحمته جميع مخلوقاته ، فآتاهم مافيه كمالهم الجسمى والروحى ومابه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم.

وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

(فاتبعونى وأطيعوا أمرى) أى فاتبعونى فيما آمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ولم يطيعوا أمره .

(قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) أى قال عبدة العجل من قوم موسى : لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول وماذا يرى فى ذلك ؟ .

وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويف وعدم إجابة طلب هرون .

ثم ذكر مقال موسى لهرون بعد أن فرغ من خطاب قومه و بيان خطأ فعلهم .

(قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) أى قال موسى لهرون : أىّ شىء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟ .

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هرون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما فى ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبغوض لديهم مما تشق على النفوس ، وتقتضى ترك ذلك الأمر الذى يكرهه .

(أفعصيت أمرى) فيما قدمت إليك من قولى : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

فترفق هرون فى خطاب موسى استعطافا له وترقيقا لقلبه إذ أضافه إلى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

(قال يا ابن أمّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى فامتلأ موسى غضبا مما رأى وألقى مافى يده من الألواح الإلهية وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يا بن أمى لاتأخذ بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى . وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ، وكان عليه السلام حديدا غضوبا لله تعالى ، وقد شاهد ماشاهد وغلب على ظنه تقصير هرون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله واستكافا وحمية ، وعنّف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف ، قابضا على شعر رأسه (وكان أفرع) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهى بأنه غير عاص أمره ولا مقصر فى المصلحة ، ولكن :

(إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) أى إنى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا ، فتريثت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ،

المتلافيه برأيك ، وخشيت عتابك على اطراح ما وصيتنى به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجبه .

وخلاصة ذلك — إنى رأيت من صواب الرأى أن أحفظ العامة وأداريهم على وجه لايختل به نظامهم ، ولا يكون سببا للومك حتى ترجع فتتدارك الأمر على حسب ما ترى ، ولا سيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى .

و بعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه و إسنادهم الفساد إلى السامرىّ ومن سماع اعتذار هرون ـ وجه الكلام إلى السامرى .

(قال ما خطبك يا سامرى) أى قال موسى للسامرى : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، و يفعل به و بما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

(قال بصرت بما لم يبصروا به) أى قال السامرى : إنى عرفت مالم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

(فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئا من سنتك ودينك فطرحته ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان و يقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه ، ويتبع طريقته ، وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا و بماذا يأمر الأمير؟ قاله أبومسلم الأصفهانى، وأيده الرازى وقال إنه أقرب إلى التحقيق .

وخلاصة هذا — إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم ـ رد عليه بأنه كان استن بسنته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شىء ، فطرحه وراءه ظهريا وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة (الرسول) على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد

مكذب له ، فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وهم لا يؤمنون بالإنزال عليه .

(وكذلك سولت لى نفسى) أى ومثل ما زينت لى نفسى أولا اتباع سنتك واقتفاء أثرك زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا لشىء آخر من برهان عقلى أو نقلى أو إلهام إلهى .

والخلاصة — لم يدعنى إلى ما فعلت إلا هوى النفس فحسب .

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع ذكر له ما سينزل به فى الدنيا والآخرة من العقوبات ، و بين حال إلهه ، أما حاله فى الدنيا فقد ذكره بقوله :

(قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس) أى قال له : اذهب فأنت طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحدا ، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس : أى لا يماسنى أحد ولا أماس أحدا ، قال مقاتل : إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا فى البرارى. روى أنه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، ولا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لامساس لبعده عن الناس و بعد الناس عنه .

وقصارى ذلك — إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى البرّية حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك .

وأما حاله فى الآخرة فقد ذكره بقوله :

(و إن لك موعدا لن تخلفه) أى و إن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفكه الله ، بل سينجزه لك البتة بعد أن يعاقبك فى الدنيا ، وهو آت لامحيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله :

(وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا)

أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردنّه بالمبرد ثم لنذرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعده به كما يدل على ذلك قوله (وانظر إلى إلهك) ولم يصرح بهذا تنبيها إلى وضوحه واستحالة الخلاف فى وعيده المؤكد باليمين.

وفى فعله ذلك به عقوبة للسامرى و إظهار لغباوة المفتونين به لمن له أدنى نظر .

و بعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

(إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو) أى ليس هذا بإلهكم ، وإنما المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لا إله إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فكل شىء فقير إليه ، وهو الخالق لكل شىء .

(وسع كل شىء علما) أي هو العالم بكل شىء وقد أحاط بكل شئ عدًّا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) .

شرح المفردات

ذكرا : أى قرآنا كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » وسمى بذلك لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، والوزر : الحمل الثقيل ؛

والمراد به العقوبة التى تثقل على حاملها ، والصور : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر كما ينفخ فيه فى الدنيا حين الأسفار وفى المعسكرات ، زُرقا : أى زرق الأبدان سود الوجوه لما هم فيه من الشدائد والأهوال ، يتخافتون بينهم : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لشدة ما يرون من الهول ، إلا عشرا : أى عشرة أيام ، أمثلهم طريقة : أى أعدلهم رأيا وأرجحهم عقلا .

المعنى الجملى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا على نمط بديع وأسلوب قويم ـ بين لنبيه صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلية لقلبك ، وإذهابا لحزنك ؛ إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد الأهوال وتذكيرا للمستبصرين فى دينهم ، وتأكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

الإيضاح

(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويبين له أنه كما قص عليه خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على هذا الأسلوب الرائع والمسلك البديع ـ يقص عليه أخبار الحوادث التى جرت على الأمم الخالية ، ليكون له فى ذلك سلوة ليتأسى بالأنبياء السالفين وما لاقوه من أممهم من شديد العناد والجحود والتكذيب ومكابدة الشدائد والأهوال .

(وقد آتيناك من لدنا ذكرا) أى وقد أعطيناك من لدنا كتابا جديرا بالتذكر به ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يعط نبى قبلك مثله ، فهو جامع للأخبار ، حاوٍ للأحكام التى فيها صلاح حال البشر فى دينهم ودنياهم ، مشتمل على مكارم الأخلاق وسامى الآداب التى بها يرتفع قدر الأمم وينبهُ ذكرها .

(من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) أى من كذب به وأعرض عن اتباعه وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، وسيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله، بل يُنقِض ظهره، وبمعنى الآية قوله: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

وكل من بلغه القرآن من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم فهو نذير له فمن اتبعه هُدى، ومن أعرض عنه ضل وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة كما قال «لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ».

(خالدين فيه) أى مقيمين فى ذلك الوزر أى فى عقوبته لا يجدون عنها محيصا ولا انفكاكا.

(وساء لهم يوم القيامة حملا) أى وبئس الحمل الذى حملوه من الأوزار والآثام جزاء إعراضهم وسائر ذنوبهم.

(يوم ينفخ فى الصور) أى هذا اليوم هو يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية إيذانا بالقيام للحشر والحساب.

(ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى وفى هذا اليوم يساق المجرمون إلى المحشر شاحبى الألوان زرق الوجوه، لما هم فيه من مكابدة الأهوال ومقاساة الشدائد التى تحلّ بهم.

(يتخافتون بينهم) أى يخفضون أصواتهم ويهمس بعضهم فى أذن بعض، لما امتلأت به قلوبهم من الرعب والذعر، وبمعنى الآية قوله تعالى: «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا».

(إن لبثتم إلا عشرا) أى يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم فى الدنيا إلا عشرة أيام، ذاك أنهم لما عاينوا تلك الأهوال ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا، ولم يذكروا إلا القليل فقالوا ما عشنا إلا تلك الأيام القلائل.

والإنسان حين الشدائد والأهوال تغيب عنه أظهر الأشياء ، وأكثرها خطورا بباله ..

(نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) أى نحن أعلم بالذى يقولونه فى مدة لبثهم ، لاهم ، حين يقول أعدلهم رأيا وأكملهم عقلا : ما لبثتم إلا يوما واحدا .

ذاك أن الدنيا وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها ـ قصيرة المدى إذا قيست بالنظر إلى يوم القيامة . وكأن غرضهم بذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر الأجل ، على نحو ما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ » .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) .

شرح المفردات

ينسفها : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا ، يذرها : أى يتركها ، القاع : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى ، والصفصف :

الأرض الملساء ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : النتوء اليسير ؛ يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى : هو داعى الله إلى المحشر ، لاعوج له : أى لاعوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت : ذلت ، والهمس : الصوت الخفىّ ، وعنت : خضعت وانقادت ، ومن ذلك العانى:وهوالأسير ، والقيوم: القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت ، خاب : أى خسر ، والظلم الأول : الشرك . والظلم الثانى : منع الثواب عن المستحق ، والهضم : النقص .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه حال يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال التى تجعل المجرمين يتخافتون فى حديثهم وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف ـ قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر ـ عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه ، وضم إلى الجواب أمورا أخر تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله ، فبين أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ولا يسمع لهم كلام إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولا ، ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر ، وهم لايحيطون به علما ، وفى ذلك اليوم تذل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه فأشرك مع الله غيره وعبد معه سواه وعصى أوامره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لايظلمون فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يامحمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية (ويسألونك عن الجبال) الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لاسؤال معرفة للحق وتثبيت له .

الإيضاح

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) أى يسألك المشركون أيها الرسول عن الجبال كيف تكون يوم القيامة ؟ فقل مجيبا لهم يدكها ربى دكا ويصيّرها هباء تذروه الرياح .

(فيذرها قاعا صفصفا. لاترى فيها عوجا ولا أمتا) أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لانبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .

وخلاصة هـذا — لاترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا مرتفعا ولا منخفضا .

(يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) أى يوم يرى الناس هذه الأهوال يتبعون صوت داعى الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا انحراف ، ولـكنهم سراعا إليه يقبلون ، إذا أمروا بشىء قالوا لبيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك و إليك كما قال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » وقال : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » .

(وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) أى وعلمت الخلائق أن لامالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لايكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، و يضعف صوته، و يختلط قوله ، و يطول غمه ، قاله أبو مسلم .

(يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) أى يومئذ لاتنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ورضى له قولا صدر منه .

والفاسق قد قال قولا يرضاه الرحمن فقد قال لاإله إلاالله كما روى عن ابن عباس.

والخلاصة — إن الشفاعة لاتكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

(١) إذن الله للشافع بالشفاعة .

(٢) رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعة الشافع له .

وقصارى ذلك — إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى .

وبمعنى الآية قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰوٰتِ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى » وقوله : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » وقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » .

ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير إذنه علل ذلك بقوله :

(يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) أى يعلم مابين أيدى عباده من شؤون الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة وهم لايعلمون جملة ذلك ولا تفصيله .

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها فقال :

(وعنت الوجوه للحى القيوم) أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .

وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل والغبطة والسرور تظهر عليها .

(وقد خاب من حمل ظلما) أى وقد حرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله كافر بأنبيائه أو تارك لأوامره منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :

(ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) أى ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته وهو مؤمن بر به ورسله وما أنزله عليهم من كتبه فلا يخاف من الله ظلما بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها ، ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وخلاصة ذلك — إنه لايؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا يبطل له حسنة قد عملها .

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) .

شرح المفردات

صرّفنا : كررنا وفصلنا ، ذكرا : أى عظة وعبرة ، فتعالى الله أى تنزه وتقدس الحق : أى الثابت فى ذاته وصفاته ، يقضى إليك وحيه : أى يتم جبريل تبليغه لك .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأهوالها ـ أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآنا عربيا ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر ، ثم بين عز اسمه نفع هـذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه مخافة النسيان ، فنهى عن ذلك وقيل له : لاتعجل به إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون ، والله يزيدك فهما وعلما .

الإيضاح

(وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) أى ومثل إنزال ماذكر من الوعد والوعيد و بيان أحوال يوم القيامة وأهوالها ـ أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين ، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم و يتفقهوا بدراسته ، و يسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

(وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد كى يجتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام ، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات .

وخلاصة ذلك — إنهم بدراستهم إما أن يصلوا إلى مرتبة هى ترك المعاصى والوقوع فى الآثام ، و إما أن يرتقوا إلى مرتبة هى فوق ذلك ، وهى أن يفعلوا الطاعات و يؤدوا الفرائض والواجبات .

و بعد أن عظم الله كتابه أردفه بتعظيم نفسه فقال :

(فتعالى الله الملك الحق) أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى الحقيق بأن يرجى وعده و يخشى وعيده ، وهو الثابت الذى لايزول ولا يتغير ـ من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤديا إلى الغاية التى أنزل لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات .

ولا يخفى مافى هـذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن و بيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلهية فيها صلاح الدارين لايحيد عنها إلا من خذله الله ، وأن ماتضمنه من الوعد والوعيد حق كله لا يحوم الباطل حول حماه ، وأن المحق من أقبل عليه بشراشره ، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يتم جبريل تبليغه لك ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا ألقى

عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفا أن يصدر عليه السلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك، إذ ربما يشغله التلفظ بالكلمة عن سماع مابعدها.

وفى هذا أنزل قوله تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

وخلاصة ذلك — أنصت حين نزول الوحى بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، اقرأه بعده .

(وقل رب زدنى علما) أى سل الله زيادة فى العلم دون استعجال بتلاوة الوحى فإن ما أوحى إليك يبقى لامحالة ، روى الترمذى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ماينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدنى إيمانا وفقها ، ويقينا وعلما .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) .

شرح المفردات

العهد : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا: إذا أمره وأوصاه به ، من قبل:أى من قبل وجود هؤلاء المخالفين، فنسى: أى فترك ، ولم نجده : أى لم نعلم، والعزم على الشىء : تصميم الرأى والثبات عليه ، أبى : أى امتنع ، فتشقى : أى تتعب بمتاعب الدنيا وهى لاتكاد تحصى ، تظمأ : تعطش ، تضحى : أى تصيبك الشمس يقال ضحا كسعى وضحى كرضى : إذا أصابته الشمس بحرها اللافح ، شجرة الخلد : أى الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت، لايبلى: أى لايفنى، طفقا يخصفان أى شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها ، غوى : أى ضل عن الرشد حيث اغترّ بقول عدوه ، واجتباه : اصطفاه وقربه إليه ، وهدى : أى إلى الثبات على التوبة عن ذكرى : أى عن الهداية بكتبى السماوية ، والضنك : الضيق الشديد ، أعمى : أى عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية ، عن آياتنا : أى عن أدلتنا ، فنسيتها : أى فتركتها ، وتنسى : أى تترك ، أسرف : أى انهمك فى الشهوات واسترسل فيها.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صرّف الوعيد فى القرآن وكرره لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ـ قفى على هذا ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه كما لم يلتفت أبوهم آدم

إلى الوعيد ونسى العهد ، فمخالفتهم قديمة وعرقهم فيها راسخ . ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم ، ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هـذا قد أطاع وساوسه وقبل إرشاده ، فأكل من الشجرة التى نُهى عن الأكل منها ، فأخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدو له ولذريته ، ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش فى الدنيا قرير العين هادئ البال ، ويؤتى فى الآخرة ما شاء الله أن يؤتى من ألوان النعيم والسعادة ، ومن أعرض عن ذلك عاش فى الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثم يغلب عليه الشح والبخل ويفعل كل منكر فى سبيل جمع المال من أى وجه كان ولا يبالى أمن حلال كان أم من حرام ، ولذلك تراهم يقولون (الغاية تبرر الواسطة) . أما المؤمن الذى لا يعنيه جمع حطام الدنيا فإنه فى سرور وراحة قلّ ماله أو كثر .

وهو فى الآخرة يكون أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزى الدائم والعذاب المقيم .

ثم أردف هذا ببيان سبب ذلك وهو إعراضه فى الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير فى جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المسرفين المكذبين بآياته فى الدنيا والآخرة جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام كما قال سبحانه : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ » .

الإيضاح

(ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) أى ولقد وصينا آدم وقلنا له إن إبليس عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة ، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه

وخالف أمرى وترك العهد الذى أمرته به ولم يهتم بالعمل به ، ولم نجد له ثباتا فى الرأى ولا تصميما فى العزيمة .

وخلاصة ذلك — إنه ترك ماوُصِّى به من الاحتراس من الأكل من الشجرة.

ثم بين سبحانه المعهود به وكيفية نسيانه وفقدان عزمه فقال :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) أى واذكر أيها الرسول الكريم ماوقع فى ذلك الحين منا ومن آدم حتى يستبين لك نسيانه وفقدان عزمه ، إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فلبوا الأمر إلا إبليس فإنه امتنع وأبى أن يكون مع الساجدين .

وقد تقدم هذا القصص فى سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف ، وسيأتى ذكره فى سورة ص ؛ وفيه إشارة إلى تكريم آدم وتشريفه وتفضيله على كثير ممن خلق .

(فقلنا يا آدم إن هـذا عدوّ لك ولزوجك) أى فقلنا له عقب ذلك رعاية لإرشاده ونصحه : إن هذا الذى رأيت منه ما رأيت — عدوٌّ لك ولزوجك ، ومن ثم لم يسجد لك وخالف أمرى وعصانى ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به .

(فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أى فلا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة ، فتتعبا بمتاعب الدنيا التى لاتكاد تحصى .

وخلاصـة ذلك — إياك أن تسعى فى إخراجك منها فتتعب وتشقى فى طلب رزقك ، وأنت هاهنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة .

ثم علل ما يوجبه النهى عن ذلك فقال :

(إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) أى لا يكون لك فى الجنة جوع ولا عرى ، ولا ظمأ ولا إصابة بحر الشمس .

وقرن بين الجوع والعرى أولا ، لأن فى الجوع ذل الباطن وفى العرى ذل الظاهر ، و بين حر الباطن وهو العطش وحر الظاهر وهو الضحى ثانيا .

وخلاصة ذلك — إن الجنة اجتمعت فيها الأسباب التى توجب راحة الإنسان، وذلك مما يوجب الاهتمام بتحصيل الوسائل التى توجب البقاء فيها ، والابتعاد عما يدعو إلى الخروج منها .

وقصارى ذلك — إن لك فيها تمتعا بأنواع المعاش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية ، والملابس البهية .

و بعد أن بين أنه عظم آدم وعرفه شدة عداوة إبليس له — بين أنه قبل نصحه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها فقال :

(فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟) أى فألقى الشيطان النصيحة إلى آدم وقال له : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت ولم تمت وملكت ملكا لا ينقضى ولا يفنى .

(فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى فأكل آدم وحواء من الشجرة التى نهيا عن الأكل منها وأطاعا أمر إبليس وخالفا أمر ربهما ، فانكشفت عورتهما وكانت مستورة عن أعينهما ، فشرعا يلزقان ورق التين عليهما ليغطيا جسمهما .

(وعصى آدم ربه فغوى) أى وخالف أمر ربه ، وتعدى مالم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها .

(ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) أى ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته ورزقه التوبة والعمل بما يرضيه حين قال هو وزوجه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) أى قال الرب الذى انتهكت حرمة داره وخولف أمره . إنزلا من الجنة إلى الأرض ، أنتما عدو لإبليس وذريته ، وإبليس عدوكما وعدوّ ذريتكما .

(فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) أى فإن يأتكم

يا آدم وحواء وذريتهما بيان لسبيلى وما أختاره لخلقى من دين بإرسال الرسل والكتب فمن اتبع ذلك وعمل به ولم يزغ عنه فإنى أهديه فى الدنيا وأرشده إلى محجة الصواب ولا يشقى فى الآخرة .

أخرج ابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : « أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة ، ثم قرأ الآية » ، وروى عنه مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة » .

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) أى ومن أعرض عن ذكرى الذى أذكّره به وتولى عنه ولم يتعظ به فينزجر عما هو مقيم عليه من مخالفة أمر ربه ، فإن له معيشة ضيقة شديدة لما يكون فيه من القلق والحرص على الدنيا والتهالك على ازديادها والخوف من انتقاصها ، فترى الشح غالبا عليه ، والبخل راسخا فى أعراقه .

(ونحشره يوم القيامة أعمى) عن الجنة ، لأن الجهالة التى كانت له فى الدنيا تبقى كذلك فى الآخرة ، وهذا يصير سببا لأعظم الآلام الروحية له .

وقصارى ذلك — إن الله عز اسمه جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه العيش الهنىء الذى لاهمّ فيه ولا غم ، وجعل لمن أعرض عن دينه التعب والنصب ، وهو فى الآخرة أشد تعبا وأعظم ضيقا وأكثر ألما .

(قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟) أى قال رب لم حشرتنى أعمى عن حجتى وعن رؤية الأشياء على حقيقتها ، وقد كنت فى الدنيا ذا بصر بذلك كله ؟ ، ونحو الآية قوله : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا » .

(قال) ربه مجيبا هذا السائل :

(كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى فكما تركت آياتنا ترك المنسى الذى لايذكر أصلا وأعرضت عنها — اليوم ننساك فنتركك فى النار .

(وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) أى وهكذا نعاقب من أسرف فعصى ربه ولم يؤمن برسله وكتبه ، فنجعل له معيشة ضنكا .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : يقول كل مال أعطيته عبدا من عبادى قل أو كثر لايتقينى فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة ، وعن عكرمة ومالك بن دينار نحوه ، وقيل إن تلك المعيشة له فى القبر بأن يعذب فيه ، وقد روى ذلك عن جماعة منهم ابن مسعود وأبو سعيد الخُدْرىّ ومجاهد ، وروى ذلك مرفوعا أيضا فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له قبره سبعين ذراعا ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، وهل تدرون فيم أنزلت (فإن له معيشة ضنكا) ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً ، هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رءوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : المعيشة الضنك فى النار شوك وزقوم وغسلين وضريع وليس فى القبر ولا فى الدنيا معيشة ، وما المعيشة والحياة إلا فى الآخرة.

(ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) أى ولعذاب الآخرة فى النار أشد مما نعذبهم به فى الدنيا وأكثر بقاء ، لأنه لا أمد له ولا نهاية .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) .

شرح المفردات

أفلم يهد لهم : أى أفلم يبين لهم العِبَر ، لأولى النهى : أى لذوى العقول الراجحة لزامًا : أى لازما لهم لايتأخرعنهم ، فسبح بحمد ربك: أى اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه آناء الليل : ساعاته واحدها إنًى و إنو (بكسر الهمزة وسكون النون) ولاتمدن عينيك: أى لاتطيلن النظر رغبة واستحسانا ، متعنا : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من المناظر الحسنة و يسمعون من الأصوات المطربة و يشمون من الروائح الطيبة ، أزواجا: أى أشكالا وأشباها ، زهرة الحياة الدنيا : أى زينتها وبهجتها ، لنفتنهم : أى لنبتليهم ونختبرهم ، ورزق ربك : أى ما ادخره لك ، واصطبر عليها : أى دم عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال من أعرض عن ذكر الله فى الآخرة بقوله : ونحشره يوم القيامة أعمى ـ أتبعه بما يكون عبرة للمشركين لو تفكروا فيه ، وهو ما نزل بالمكذبين بالرسل ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خرابا بلقعا ليس فيها ديّار ولا نافخ نار ، ثم بين أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى لحاق بهم مثل ما حاق بمن قبلهم، ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ،و إنه شاعر، و إنه مجنون وعدم المبالاة بمقالتهم ، وعليه أن يكثر من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار ولا يلتفت إلى شىء مما متع به الكفار من زهرة الدنيا التى أوتيت

لهم لتكون ابتلاء واختبارا ، وما عند الله خير منها وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟) أى أفلم يرشدهم إلى وجه العبر ، إهلاكنا كثيرا من الأمم الماضية والقرون الغابرة التى يمرون عليها مصبحين وبالليل ؛ كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعيم ثم ما حل بهم من صنوف البلاء ، فيتعظوا ويعتبروا ويؤمنوا بالله ورسوله خوف أن يصيبهم بكفرهم مثل ما أصاب هؤلاء السابقين .

وللمشاهدة من العبرة ما ليس لغيرها فقد قالوا « ليس الْخَبَرُ كَالْخَبَرِ » وقالوا : « ما راء كمن سمع » .

وخلاصة ذلك — إن فى مشاهدة ما حصل للأمم الماضية ، ورؤية آثارها البائدة التى يمرون عليها فى رحلاتهم فى الصيف لعبرةً وزاجرا لهم لو كانوا يعقلون .

ثم علل هذا الزجر والإنكار بقوله :

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذبة لرسلنا وحلول المثلات بهم لكفرهم بربهم — لعبرًا وعظات لأرباب الحجا الذين ينهاهم دينهم ويؤنبهم عقلهم من مواقعة ما يضرهم .

ولما هدد المشركين بالهلاك كهلاك المكذبين من الماضين ، ذكر سبب تأخير ذلك عنهم فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا وأجل مسمى) أى ولولا الكلمة النافذة التى سبقت منا فى الأزل ، وهى أن أمة محمد — وإن كذبوا — سيؤخر عذابهم

ولا يفعل بهم ما فعل بغيرهم من عذاب الاستئصال ، كما قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» إعجل لهم العذاب كفاء ما قاموا به من تكذيب الرسول و إيذائه .

وقد جعل العلماء من الحكمة فى تأخير العذاب أنه ربما تاب بعضهم أو خرج من أصلاب بعضهم من يؤمن ، فيكون فى ذلك إكرام لنبيّه ، ورحمة لأمته ، وتكثير لسواد أتباعه ، و إلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

و بعد أن أخبر سبحانه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله ـ أمره بالصبر على ما يقولون فقال :

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار) أى واصبر أيها الرسول على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من نحو قولهم : إنك لساحر ، و إنك لمجنون ، و إنك لشاعر ، واشتغل بتنزيه الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى ساعات الليل المختلفة وفى أطراف النهار ، والمراد من مثل ذلك عموم الأوقات ، وفى صحيح مسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا وقرأ هذه الآية » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، و إن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » .

وعن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كانت

الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » .

(لعلك ترضى) أى سبحه رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسَعدَيْك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول إنى أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

ولما صبر رسوله على ما يقولون وأمره بالتسبيح ـ أتبع ذلك بنهيه عن مدّ عينيه إلى ما متعوا به من زينة الدنيا فقال :

(ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) أى ولا تطل النظر استحسانا ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، نختبرهم بها ، ونعلم هل يؤدون شكرها أو تكون وبالاً عليهم ونكالاً لهم ، وقد آتاك ربك خيرا مما آتاهم ، فرضاه خير وأبقى كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وخلاصة هذا — التنفير من الانهماك فى التمتع بزهرة الدنيا لسوء عاقبتها .

روى أبو رافع «أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فأرسلنى إلى يهودى بالمدينة يستسلفه ، فأتيته فقال: لا أسلفه إلا برهن ، فأخبرته بذلك فقال : إنى لأمين فى أهل السماء وفى أهل الأرض ، فاحمل درعى إليه ، فنزل (ولا تمدن عينيك) الآية».

و بعد أن أمر الله نبيه بتزكية النفس أمره أن يأمر أهله بالصلاة فقال :

(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى)

أى وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة وحافظ أنت عليها فعلاً ، فإن الوعظ بالفعل أشد أثرا منه بالقول كما قال :

يأيها الرجل المعلم غيره هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

وإنا إنما نريد منك ومنهم العبادة والتقوى ، ولا نطلب منك رزقا كما تطلب السادة من عبيدهم الخراج ـ والعاقبة الجميلة لمن اتقى الله وأطاعه ، فإن ماعندهم ينقطع، وما عند الله دائم لايفنى كما قال : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ » .

والخلاصة — داوم على الصلاة ، لانكلفك مالاً ، بل نكلفك عملا نؤتيك عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا ، ونحن نعطيك المال ونكسبكه ولا نسألكه ، والعاقبة الصالحة لأهل الخشية والتقوى لا لمن لايخاف له عقابا ولا يرجو ثوابا كما قال : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » وقال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ » .

عن أبى رافع قال : « نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن عنده مايصلحه فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقا إلى هلال رجب ، فقال لا إلا برهن فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه، اذهب بدرعى الحديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية كأنه يعزيه عن الدنيا » أخرجه البزار وأبو يعلى وابن أبى شيبة فى جماعة آخرين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا : وأمر أهلك بالصلاة .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل

ما شاء الله تعالى أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاةَ الصلاةَ ويتلو هذه الآية .

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) .

شرح المفردات

لولا : أى هلا ؛ وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها ، آية : أى معجزة تدل على صدقه ، البينة : القرآن ، والصحف الأولى : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ، نذل : أى نهان ، ونخزى : أى نفتضح ، متربص : أى منتظر ، الصراط : الطريق ، والسوىّ : أى المستقيم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقاويلهم التى أرادوا بها تكذيبه والكيد له وشديد الأذى به — حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة ، ومنها ادعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ، فلو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم كما حكى الله عنهم من قوله : « قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد فقال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتميز الحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى الثانى من ضروب الخزى والإهانة ، ويظهر مَن منّا سار على الطريق السوى ومن المهتدى ؟ .

الإيضاح

(وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) أى وقال المشركون : هلا يأتينا بمعجزة تدل على صدقه فى دعوى النبوة كما أتى صالح قومه بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه ، وهم بذلك قد بالغوا فى العناد والمكابرة شأوا بعيدا ، أفلا يعدّون ما شاهدوه من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى يجترئوا على التفوّه بهذه الكلمة الشنعاء ؟ .

ونحو الآية قوله فى سورة العنكبوت : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » .

(أولم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ؟) أى ألم يأتهم القرآن وهو أم الآيات وأنفع المعجزات ، فالعلم هو أجلّ الأمور وأعلاها ، وهو مبدأ الأمور ومنتهاها ، فبه تنال السعادة الأبدية ، فأى معجزة تطلب بعده ، وهو الذى جمع مافيه مصلحة البشر وصلاح المجتمع فى معاشه ومعاده ، وهو الشاهد على حقية مافى الكتب قبله وما جاء فيها من العقائد وأصول الأحكام التى اتفقت عليها الرسل كافة .

وخلاصة ذلك — أليس قد جاءهم القرآن وهو البينة والشاهد على صحة مافى الكتب الأولى ، وكفى بذلك آية ، ولا حاجة للرسول بعدها إلى آية .

ثم بين أن المشركين يوم القيامة يعترفون بأن القرآن آية بينة ، فقال :

(ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) أى ولو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال من قبل إتيان البينة وهى القرآن لقالوا يوم القيامة : ربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا معه الآيات الدالة على صدقه ، فنتبع حججك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذل بتعذيبك ونفتضح به .

والخلاصة — إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم — لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن نهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، لكنا لم نهلكهم قبله فانقطعت معذرتهم .

(قل كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين بالله : كلنا منتظر لمن يكون الفلاح ؟ وإلام يئول أمرى وأمركم ؟ فتربصوا وارتقبوا ، فستعلمون من أهل الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ؟ أنحن أم أنتم ؟ وستعلمون من المهتدى الذى هو على سنن الطريق القاصد ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً؟ » وقوله : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ » .

وغير خافٍ مافى بدء السورة وخاتمتها من المناسبة ، فإنها بدئت ببيان أن القرآن قد أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ، وحيث قد بلغتَ فلا عليك ، وختمت بطلب الإقبال على طاعة الله قدر الطاقة وأمر أهله بالصلاة وترك الذين لاينجع فيهم الإنذار ، فإنه تذكرة لمن يخشى ، وسيندم المخالف حيث لاينفع الندم .

خلاصة لما تضمنته السورة الكريمة

(١) إن القرآن أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم تذكرة لمن يخشى ، أنزله من خلق الأرض والسموات العلى .

(٢) قصص موسى عليه السلام وتكليمه ربه فى الطور ، وحديث العصا واليد البيضاء من غير سوء ، وطلبه من ربه أن يجعل له أخاه هرون وزيرا وإجابة سؤاله فى ذلك ، وامتنانه عليه بما حدث له حين وضع فى التابوت وألقى فى اليمّ وقصّ أخته ورجوعه إلى أمه ، ثم طلب ربه منه أن يبلغ فرعون دعوته وينصح له فى قبول دينه وإقامة شعائره ، وإجابة فرعون له بأنه ساحر كذاب ، وأنه سيجمع له السحرة ثم إيمان السحرة به فتوعدهم فرعون بالعذاب فلم يأبهوا له ، واستمر فرعون فى غيه حتى أوحى الله إلى موسى أن يخرج من مصر فأتبعه هو وجنوده فأغرقوا .

(٣) حديث السامرى وإضلاله بنى إسرائيل باتخاذه عجلا جسدا له خوار حين كان موسى بالطور ، وحين رجع ورأى ذلك هاله الأمر وغضب من أخيه هرون وأخذ يجره من رأسه ، ثم إغلاظه القول للسامرى ودعوته عليه بأنه يعيش طريدا فى الحياة وسيعذبه الله فى الآخرة أشد العذاب ، ثم نسف إلهه وإلقاؤه فى اليمّ .

(٤) بيان أن من أعرض عن القرآن فإنه سيلقى الجزاء والوبال يوم القيامة .

(٥) ذكر أوصاف المجرمين حينئذ ، وأنهم يختلفون فى مدة لبثهم فى الدنيا .

(٦) سؤال المشركين عن حال الجبال يوم القيامة ، وأن الأصوات حينئذ تخشع للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، وأن الوجوه تخضع لربها القائم بأمرها .

(٧) وصف القرآن الكريم بأنه عربى مبين أنزل تذكرة للناس ، وأن الله سيعصم رسوله من نسيانه ، فلا ينبغى أن يعجل بتلاوته قبل أن يتم تبليغ جبريل له .

(٨) قصص آدم عليه السلام مع إبليس ، وترك آدم للعهد الذى وصاه به ربه ، وقبول نصيحة إبليس مما كان سببا فى إخراجه من الجنة .

(٩) بيان أن من أعرض عن ذكر ربه عاش فى الدنيا عيشة ضنكا وعمى فى الآخرة عن الحجة التى تنقذه من العذاب ، لأنه قد كان فى الدنيا أعمى عنها تاركا لها فتركه ربه من إنعامه .

(١٠) بيان أن فى المثلات التى سلفت للأمم قبلهم ممن يمرون على ديارهم مصبحين وبالليل كعاد وثمود — ما كان ينبغى أن يكون رادعا لهم وزاجرا لو تدبروا وعقلوا .

(١١) إن كلمة الله قد سبقت بأنه سيؤخر عذاب المشركين إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة .

(١٢) طلبه من رسوله تنزيهه والثناء عليه آناء الليل وأطراف النهار رجاء أن يعطيه ما يرضيه .

(١٣) أمر رسوله أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر هو عليها وهى لا تكون شاغلا لهم عن الرزق .

(١٤) طلب المشركين من الرسول أن يأتيهم بآية من نوع ما أوتى الرسل الأولون .

(١٥) إن إنزال القرآن على رسوله ليزيح العلة ويمنع المعذرة يوم القيامة ، فلا يقولون : لولا أرسلت إلينا رسولا وأنزلت علينا كتابا نتبعه .

(١٦) وعيد المشركين بأنهم يتربصون ، وسيعلمون يوم القيامة لمن يكون حسن العاقبة ؟

ربنا إنك رءوف بعبادك رحيم بهم ، ربنا اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تمت مسودة هذا الجزء فى صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شوال سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .